الاستقامة

أو الالتزام الحقيقي

إعداد د. هشام عبد الجواد الزهيري

الاستقامة
أو الالتزام الحقيقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م

دار الأمل
للنشر والتوزيع

١٦ شارع عبد الفتاح ـ غبريال ـ إسكندرية

الاستقامة

أو (الالتزام الحقيقي)

إعداد

د. هشام عبد الجواد الزهيري

الاستقامة أو (الالتزام الحقيقي)

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا، ثم أمَّا بعد: فإنَّ الاستقامة على طاعة الله هي أعظم كرامة يكرم بها الربُّ عبدَه، وهي أسمى غايات المؤمن في هذه الحياة الدنيا، وهي - كذلك - أولى ما ينبغي أن يُشغل المرءُ بطلبه.

وقد سأل رجلٌ رسولنا ﷺ، فقال: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك، فقال له ﷺ: «قل آمنتُ بالله ثم استقم»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا

(١) رواه مسلم.

مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢)، والتنكل عن الاستقامة هو سبب سوء أحوال المسلمين - في الحقيقة - على الرغم من كثرة أعدادهم، بل وكثرة أعداد المنتسبين إلى الالتزام منهم، ولكن صار الالتزام - عند الكثير - مجرد ظواهر تُلتزم، وصارت العبادات مجرد حركات تُؤدى مع غياب معاني الإيمان والتقوى عن القلوب، فأكتب هذه الرسالة إلى الذين انشغلوا بطلب العلم - في ظنهم - وأهملوا جانب العبادة من قيام ليلٍ، وقراءة قرآن، وذكرٍ لله، وكذا أكتبها إلى الذين تحيَّروا كيف يصلون إلى معرفة الله والأنس به، وكذا أكتبها إلى الذين انشغلوا بالعبادة - في ظنهم - وأهملوا جانب العلم الشرعي، وأضاعوا الوقت فيما يحسبونه تفكرًا، وليس كذلك، وكذا أكتبها إلى الذين شُغلوا بطلب الرزق، ولم يدروا ماذا يصنعون، لئلا يفسد عليهم قلبهم، وكذا أكتبها إلى الأمهات اللاتي شُغلن بأمور البيت، ولم يدرين كيف يحافظن على سلامة قلوبهن، وكذا أكتبها إلى

الذين انشغلوا بالدعوة إلى الله ـ في ظنهم ـ وأهملوا العلم والعبادة، فهلا دعوا أنفسهم إلى الله، فهي ـ واللهِ ـ أولى النفوس بخيرهم، فالله أسأل أن ينفعني بهذه الرسالة أنا وجميع المسلمين والمسلمات، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

ونظرًا لضعف إيماني، وعدم صلاحية المرء لوصف طريقٍ لم يسلكه؛ فقد تلمستُ وتحسستُ حتى منَّ الله عليَّ بمعرفتي بمن كان يعاني مما أعاني منه أنا وإخواني من التنكل عن طريق الهداية، فاستطاع ـ بفضل الله ـ أن يهذِّب نفسه وسط ظروف مشابهة لتلك التي يعيشها الكثير، فرأيتُ أن أصوغ طريق تهذيبه لنفسه عن طريق أسئلة يجيب عنها، عسى أن تكون أجوبته مصباحًا على طريق الاستقامة أو الالتزام الحقيقي، وربما علّقتُ على أجوبة الشيخ بتنبيهات؛ ليكون أعمَّ للفائدة، وأنفع بإذن الله، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كتبه

د/ هشام عبد الجواد الزهيري

السائل: كيف بدأت الطريق؟

الشيخ: اشتغلت بطلب العلم، وتفرغتُ له، ووجدتُ اللذة في طلبه، والسعادة فيما أحصِّل من مسائل وعلوم شرعية، إلا أنني كنتُ أفتقد طمأنينة القلب وحلاوة اليقين؛ لقلّة عملي بما أتعلمه، ولإهمالي لقراءة القرآن، حتى مررتُ بمشاكل قاسية، ضقتُ بها ذرعًا حتى غمرني الحزن والقلق والاكتئاب من كل جانب، ففزعتُ إلى قراءة القرآن، فكنتُ أكثر من قراءته حتى ربما قرأتُ في اليوم الواحد عشرة أجزاء أو ثمانية، ودمتُ على ذلك أيامًا فاطمأنت نفسي وزال حزني وشعرتُ بسكينة القلب، وأحسستُ بالخشوع، وكنتُ إذا صليتُ لم أشعر بالوساوس والخواطر التي كانت تأتيني من قبل، بل صرتُ أشعر بقلبي محفوظًا من الشياطين فضلاً من الله ونعمة، ووجدتُ البركة في الوقت، فقد كنتُ قديمًا أهمل القرآن ظنًا منِّي أنَّ الانشغال به يضيع وقت العلم، فكان كثيرًا ما يضيع الوقت في نومٍ أو كسلٍ وفتورٍ، وأمَّا بعد اهتمامي بقراءة القرآن

فقد تغير ذلك كله، فنومي قليل، ووقتي مباركٌ فيه، ونادرًا ما يأتيني كسل أو فتور، بل الأعجب من ذلك أنَّ نفسي لم يعد عندها نهمة لطعامٍ أو شرابٍ طواعية دون تكلف أو إرغام، مع أنها كانت من قبل على غير ذلك، وكنتُ إذا أرغمتُها على قلة الطعام شعرت بالحرمان ونازعتني إليه بشدة، مما كان يفسد عليَّ قلبي ويشتت فكري، فتذكرت قول النبي ﷺ: **«المؤمن يأكل في معيٍّ واحدٍ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»**(١)، يقصد أنَّ المؤمن نفسه مطمئنة بالإيمان، فنفسه غير منهومة، وأمَّا الكافر فالجشع والقسوة يملأن قلبه، فهو يأكل كالأنعام.

وأصبحتُ مع القرآن أشعر بالراحة والسعادة، وأحسست وكأنني صرتُ ذا وظيفة وعملٍ بعد ما كنتُ لا وظيفة لي ولا عمل لي، وشعرتُ بأنني قد وجدتُ بغيتي بعدما كنتُ تائهًا وأحسَّت نفسي بأنها قد وجدت ما كانت

---

(١) رواه مسلم.

تفتقده - نعم - لم أصل بعدُ إلى المعرفة، ولكني قد وضعتُ قدمي على أول الطريق.

فندمتُ على ما فرطت في حق القرآن من قبل، فكم فاتني من خير!! وكم فاتني من حسنات!!، فجعلتُ اهتمامي بالقرآن، وأكثرتُ من تلاوته ليلاً ونهارًا، وجعلتُ لي وردين: وردًا بالنهار أقرأ فيه أربعة أجزاء يوميًا نظرًا من المصحف[1]، ووردًا بالليل أتدبر فيه القرآن، فربما قمتُ الليلةُ بجزأ وربما بحزب وربما بأقل أو أكثر، إلا أنني لا همَّ لي فيه غير التدبر والتفهم لمعاني القرآن.

وأما ورد النهار، فالهمَّ الأكبر فيه للقراءة[2]، فلمَّا

(١) لو تيسر للمرء أن يختم القرآن كل سبعة أيام كصحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم لكان خيرًا كبيرًا، والمقصود أن يقرأها سريعةً بحيث يتيسر مع هذه القراءة بقية وظائف اليوم.

(٢) إنما ينجع القرآن في القلب إذا كان بترتيل مع علو صوت المرء به ليسمع نفسه سواء في ورد الليل أو ورد النهار، بخلاف القراءة السرية؛ فإنها أضعف أثرًا في القلب.

دمتُ على ذلك أسابيع شعرتُ بزوال الجفوة بيني وبين كتاب الله، فقديمًا كنتُ لا أحتمل قراءة أكثر من جزء، وأما الآن؛ فقد سهل عليَّ قراءة خمسة أجزاء دون ملل أو فتور، إلا أنني لم أحسن بعدُ تدبر القرآن فلجأتُ إلى الله، وأدمنتُ الدعاء في آخر ساعةٍ يوم الجمعة(١)، وفي العمرة أثناء الطواف والسعي خاصةً في السحر(٢)، فقد نصحني أحدُ الصالحين بالإكثار من العمرة، فدمتُ على ذلك - بحمد الله - ووجدتُ أثرها في القلب(٣)، ووجدتُ حلاوة

---

(١) آخر ساعة يوم الجمعة تُحدد بحساب عدد ساعات يوم الجمعة ثمَّ تقسم على (١٢) لحديث رسول الله ﷺ: «**يوم الجمعة اثنا عشر ساعة**»، فيحسب المرء ما بين الفجر والمغرب من ساعات ثمَّ يقسمها على (١٢) ليحدِّد آخر ساعة.

(٢) على المعتمر استغلال كل فرصة للدعاء، فيدعوا في طوافه وسعيه، وينوي بشربه لماء زمزم الهداية والاستقامة، ويكثر من الدعاء بالهداية والاستغفار أثناء السحر.

(٣) مع مداومة المرء على العمرة سيجد بركة ذلك في زيادة الإيمان وصلاح الحال عامًا بعد عام، وفي الحديث «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما تنفي النار خبث الحديد والذهب والفضة، وأفضل الاعتمار ما كان في رمضان.

الإيمان تزداد في قلبي، وسهل عليَّ تدبر القرآن شيئًا فشيئًا، وزاد خشوعي في الصلاة، وزادت طمأنينة قلبي، وأحسستُ بحلاوة الدعاء، فأدمنتهُ وداومتُ عليه حتى أحست نفسي - من فرط السعادة به - وكأنها قد دخلت الجنة، نعم - يصيبها الفتور والملل أحيانًا، ولكن حسبي أنني قد أحسستُ بسعادة الإيمان.

السائل: ومتى سهل عليك تدبر القرآن؟

الشيخ: مع كثرة دعائي وكثرة محاولاتي للتدبر، فمنَّ الله عليَّ بتدبر القرآن، وزاد تدبري له: علمي بمعاني آياته وأسباب نزولها ومعرفتي بأقوال العارفين في تفسير بعض آياته، وكذا اطِّلاعي على دقائقه اللغوية وروعة أساليبه البلاغية[1]، فصرتُ أشتاق إلى قيام الليل لما فيه من سعادة

(١) من الكتب التي عُنيت بتوضيح المعاني الإيمانية في القرآن وحلاوة أساليبه ودقة ألفاظه: كتاب «كنوز قرآنية»، وكتاب «في ظلال القرآن» لسيد قطب، إلا أنه لا غنى عن أمهات كتب التفسير؛ كـ «تفسير ابن كثير»، و«تفسير القرطبي»، و«فتح القدير» للشوكاني.

ولذة أحسُّ بها عند تدبر القرآن، خاصةً وأنني ربما بكيت عند قراءة القرآن، إلا أنَّ نفسي ربما حدثتني بالعجب وبأنها قد وصلت وعرفت ما لم يعرفه غيرها، وربما حدثتني بمراءاة الناس وبأنهم لو عرفوا سعادتي وبكائي لمدحوني ولأحبوني، فكان كثيرًا ما يفسد عليَّ قلبي بعد صلاحه، بل ربما ابتليتُ بمعاصٍ أقع فيها فحزنتُ على ما فات من حلاوة الإيمان وسعادة القلب، فأخذتُ ألوم نفسي على ما جنت من عجب ورياء وذكَّرتُها بسيئاتها الأولى وكيف كانت كسولة لا تكاد تعمل بشيءٍ مما علمته ولا تكاد تهتم بالقرآن، وكيف أنَّ الله منَّ عليها بالعمل وأكثرتُ من تذكيري لها بسيئاتها وبما فاتها من ليالٍ لم تقم فيها، وبما ضاع من ليالي القدر حتى صغرت وتضاءلت وندمت، فأكثرت من الاستغفار والتوبة حتى رق القلب واشتاقت نفسي إلى الطاعة، فقلتُ الجأي إلى الله وسليه التوفيق والدوام، وليكن أكثر دعاءكِ: «**اللهم أعني على ذكرك**

وشكرك وحسن عبادتك»، واحذري العجب والرياء، وإلا فسد قلبك وضاع ثواب عملك[1].

وكذا أخذتُ في الاطلاع على سير الصالحين واجتهادهم لتصغر عبادتي في عيني فلا أعجب بها[2]، وكذا حذَّرتُها من سوء الخاتمة، فربما أحسن المرء العمل وساءت خاتمته لخبيئة في نفسه لا يعلمها إلا الله، فكيف الفرح مع هذا؟ فانقشع عنها ضباب العجب بفضل الله، وصار حالها حال الخائف من سوء الخاتمة.

فلما دامت نفسي على تلاوة القرآن نهاراً وتدبره ليلاً وعلى قراءة سير السلف وعلى دوام تذكر سيئاتها؛ عزفت نفسي عن الدنيا أكثر من ذي قبل، وأحسستُ بالسكينة في

---

(١) من الكتب الهامة التي ينبغي دراستها لمعرفة وعلاج آفات القلب من حسد وحقد ورياء وغيرها: كتاب «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة.

(٢) من الكتب الهامة في هذا الموضوع: كتاب «سير أعلام النبلاء»، كتاب «حلية الأولياء»، كتاب «الزهد» للإمام أحمد بن حنبل، كتاب «صفة الصفوة»، كتاب «البيان لأسباب زيادة الإيمان» لي.

قلبي وبوقار الإيمان في نفسي، وصار القرآن نور صدري وبهجة نفسي، وأحسستُ عند قراءته بأنَّه حقًا كلام الله، فربما شعرتُ عند بعض الآيات بأنَّ الله يخاطب الناس بها، وربما شعرتُ بأنني أُخاطَب، وكثر بكاءي عند تدبره(١)، فربما بكيتُ لحلاوة الأسلوب وجمال الألفاظ، وربما بكيت حبًا لله وشوقًا إليه، وربما بكيتُ ندمًا على تقصيري وغفلتي، وربما بكيتُ فرحًا بفضل الله عليَّ وإنعامه بتدبر القرآن، وربما شعرتُ بوارد البكاء يأتيني فلا أستطيع دفعه فأبكي ولا أدري ما سبب بكائي(٢).

---

(١) لا يصل العبد إلى هذه الدرجة حتى يجعل همَّه من القراءة التدبر لا البكاء، فإن أتى البكاء فبها ونعمت، وأما من جعل همَّه البكاء والتكلف له، وجعل أكبر همَّه سعادة نفسه لا صلاح قلبه ولا تهذيب نفسه، فمثل هذا لا يصل في الغالب.

(٢) هذا من الشيخ - أكرمه الله - من باب التحدث بفضل الله بغرض التعليم والنفع للغير، لا من باب الفخر والعجب، وقد صح عن عمر رضي الله عنه أنه أخبر الناس أنه كان كلَّما تذكر ما قاله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تصدق وعمل أعمالاً صالحة، فدل على جواز التحدث بالعمل من أجل التعليم والنصح.

ووجدتُ القرآن يحث نفسي على الخيرات من حسن الأخلاق، والإكثار من الصدقات، والإقبال على الآخرة، ووجدتُ نفسي قد توفر لها معه الوقت، فشغلتُ نفسي بطلب العلم، ونوعتُ أبواب العلم التي أدرسها(١)، لئلا تملّ نفسي، فتارةً أدرس الفقه، وتارةً أدرس التوحيد، وتارةً التفسير، وتارةً كتب الأحاديث الصحيحة وشروحها(٢)،

(١) من العلوم الأساسية علمي الفقه والتوحيد، وأفضل ما يُدرس للفقه: «كتاب منار السبيل» بشرح الشيخ أحمد حطيبة ـ حفظه الله ـ ونصيحتي لإخواني أنت يسمعوا الشرح للكتاب من أوله إلى آخره كاملاً ثم يعيدوه ثانيةً ثم ثالثةً حتى يكتمل هضم المسائل وفهمها، وكذا علم التوحيد، وأفضل ما يُدرس: شروح الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ لكتب (فتح المجيد، معارج القبول، منة الرحمن، فضل الغني الحميد)، وليكثر المرء من دراسة هذه الكتب قدر المستطاع، ولو بأن يسمع بمقدار ٣٠ دقيقة يوميًا من شرح الشيخ أحمد، ومثلها من شرح الشيخ ياسر.

(٢) مثل صحيح مسلم بشرح النووي، فتح الباري بشرح البخاري، عون المعبود بشرح سنن أبي داود، ومسند الإمام أحمد، تحفة الأحوذي بشرح الترمذي، صحيح الجامع، السلسلة الصحيحة، وصحيح الترغيب والترهيب للشيخ الألباني، صحيح القصص النبوي للأشقر.

وجعلتُ معها كتب الرقائق كزادٍ لقلبي[١]، فوجدتُ للعلم طعمًا آخر، ووجدتُ نفسي تلتمس منه الهدى والتقى، وتبتغي منه نفع نفسها وغيرها من المسلمين، وتطلب به النجاة من النار والفوز بالجنة، وذهب عني كثيرٌ من الكسل والفتور اللذين كنتُ أجدهما مع طلب العلم المجرد عن قراءة القرآن والعمل به، بل وأحسستُ بأثر العلم في القلب بعدما كان مجرد كلامٍ على اللسان، فتذكرت قول بعض السلف: «كنا إذا تعلم أحدنا الحديث الواحد رؤي ذلك فيه»، فندمت على ما ضاع من وقتٍ بعيدًا عن طلب العلم، فقديمًا كنتُ أترك قراءة القرآن والعمل بالعلم حرصًا على طلب العلم والإكثار منه، فكان كثيرًا ما يضيع الوقت في الكسل والفتور والنوم، بل زادت بركة القرآن والعمل بالعلم حتى وجدتُ نفسي قد اتسع قلبها لفهم المسائل

(١) نصيحتي أن يكثر المرء من قراءة كتب الرقائق باستمرار لتكون معاني الإيمانية وحقائقه حاضرةً لديه على الدوام.

واستنباط الأدلة، وأحسستُ بتوفيق الله وتوجيهه وتيسيره لطلب العلمن وتحصيله من حيث لا أحتسب.

وزادت بركة القرآن أنني بالإكثار من تلاوته والاهتمام به، قد سهل عليَّ استغلال المواسم والأوقات الفاضلة، فقديمًا كنتُ أهمل قراءة القرآن طوال العام وأقول سأعوِّض ذلك في رمضان وعشر ذي الحجة، فإذا أتى رمضان، أو العشر الأوائل من ذي الحجة، أجد جفوةً بيني وبين القرآن وأشعر بالكسل والملل والفتور، فتنقضي هذه الأيام الفاضلة، وقد قصرتُ فيها أشد التقصير، وأمَّا الآن، فقد زالت هذه الجفوة، وزاد ارتباطي بالقرآن، فسهل عليَّ تدبر القرآن وتلاوته آناء الليل والنهار في هذه الأوقات الفاضلة خاصة العشر الأواخر من رمضان التي فيها ليلة تعدل أكثر من ٨٣ سنة؛ وهي ليلة القدر، فعلمتُ أن ليلة القدر - التي تعدل عمرًا بأكمله - لا يُوفق لها إلا من أحسن الارتباط بالقرآن والطاعة طوال العام،

ولعلّ هذا ـ والله أعلم ـ هو مقصود ابن مسعود رضي الله عنه من قوله: «مَنْ يقم الحول يصب ليلة القدر»، أي: لا يُوفق فيها إلا من أحسن الاستعداد لها طوال العام، فلا إله إلا الله، كم في الارتباط بالقرآن من خير!!

ومع دوام ارتباطي بالقرآن، وجدتُ نفسي تُقبل أكثر على طلب العلم وتحصيله حتى صارت نفسي تغلي بطلبه، وتكثر من القراءة والاطلاع والمدارسة، إلا أنني ربما شُغلت عن طلبه يومًا لمصلحةٍ ما راجحة كصلة رحمٍ أو عيادة مريضٍ أو زيارة أخٍ لي في الله، ولكن أعوِّض ما فات بعد.

وزادت فائدة القرآن أنني مع اهتمامي بالعلم المجرد ـ قديمًا ـ ربما لم يتيسر لي طلب العلم لظرفٍ ما في وقتٍ ما، فكنتُ ـ للجفوة بيني وبين القرآن ـ لا أكاد أقرأ القرآن في هذا الوقت، بل يضيع بلا فائدة، وأمَّا الآن، فقد تيسر لي استغلاله في قراءة القرآن، ومع زيادة حبي للقرآن، وحفظي

له[١]، استغللتُ أوقات المشي في مراجعته وتسميعه، فتوفر لي وقتٌ أكبر لطلب العلم ومدارسته[٢]، فأشرقت أنواره في القلب، ورأيتُ بعيني قلبي حِكَم الله الباهرة في أحكام الشرع وآدابه، وذقتُ حلاوة قول النبي ﷺ: «**رضيتُ بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ رسولاً**»، وذقتُ حلاوة الأذكار،

---

(١) الظاهر من حال الشيخ أنه قد بدأ الطريق بعد حفظه لكتاب الله، فمن بدأه قبل حفظه، فليقلل من ورد القراءة ويشغل هذا الوقت بالحفظ.

(٢) من الخطأ البين إعراض بعض المنتسبين للعبادة عن طلب العلم الشرعي بزعمهم أنهم قد تعلموا العلم الواجب عليهم، وجهلوا أن طلب العلم من أكبر أسباب صلاح القلب واستقامته في العبادة، فضلاً عن عدم التسليم بتحصيل العلم الواجب، إذ مسائل التوحيد الواجب تعلمها كثيرة، وكذا أبواب الفقه الواجب تعلمها، وعلى كل حال فحاجة المسلمين إلى طلاب العلم والعلماء أكبر من حاجتهم إلى العباد، وقد قال ﷺ فيما صح عنه: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، وذلك لعموم نفعه وتعديه، وقد زدتُ ذلك إيضاحًا في كتاب «البيان لأسباب زيادة الإيمان»، وكتاب «تهذيب النفوس» والحمد لله.

ووجدتُ السكينة والتدبر عند الذكر، وصرتُ أشتاق إليه وأجد مرارة فقده، ففرحتُ بفضل الله عليَّ، إلا أنَّ الرجاء - لسعادتي بالطاعة - قد غلب الخوف[١]، وفرحي بالطاعة قد غلب حزني[٢]، على تقصيري وتفريطي، وعلى حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فأكثرتُ من ذكر الموت عملاً بأمر النبي ﷺ في قوله: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»، وأكثرتُ من ذكر سيئاتي وتقصيري عملاً بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (الحشر:١٨-١٩)، وذكّرتُ نفسي بحال المسلمين بين الحين والآخر، لئلا يفسد القلب عند الانشغال بالشهوات المباحة.

---

(١) المطلوب اعتدال الرجاء والخوف في القلب.

(٢) الحزن ليس مقصودًا شرعًا، والمقصود ها هنا الندم على المعاصي والتفريط في الطاعة، والتألم لحال المسلمين، وفي الحديث: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

السائل: أحيانًا أجد في نفسي العجز والكسل، فما سبب ذلك؟

الشيخ: بسبب إهمال العبد للطاعات وتكاسله يُحرم قلبه إرادة الخير، فتشعر النفس بعدم الرغبة في فعل الخير أو بالعجز عن فعله، وهذا هو العجز المذموم الذي صح عن رسولنا ﷺ الاستعاذة منه.

السائل: فما علاج هذا العجز؟

الشيخ: علاجه بثلاثة أمور:

(أ) إحساس النفس بالتقصير:

فهذه أول خطوة لعلاج هذا العجز، وهو أن يشعر المرء بأنه مقصر، وذلك بمصاحبته لأهل الصلاح وقراءته لسير السلف الصالح ليعرف تقصير نفسه، ومن رحمة الله بعبده المؤمن أنَّه إذا كسل وفتر عن الطاعة شعر بضيق نفس وحزنٍ يجعلانه يحنُّ إلى سعادة الطاعة وسعادة النفس بها ليكون ذلك أدعى لتنشيط القلب فتكون النفس في دعائها بذهاب

العجز والكسل في كامل التضرع والرغبة والرجاء، وكذا للعزم عزمًا أكيدًا على تغيير الحال ولتكون على شعورٍ بضرورة هذا التغيير، وأنه لابد منه، وليس مجرد أمرٍ هام، وهذه هي الخطوة الثانية لعلاج العجز والكسل، وهي:

(ب) إحساس النفس بضرورة تغيير الحال.

وأما الخطوة الثالثة، فهي:

(ب) الأخذ بالأسباب المتاحة:

كأن تعمل بما تستطيع، فمن رحمة الله أنه إذا أصاب المؤمن بفتورٍ أو كسل، مكَّنه من بعض العمل، فمن كان يستطيع مثلاً قيام الليل بآيات كثيرة مع التدبر كما تعود من قبل، فإنه غالبًا ما يستطيع القيام بآيات أقل ولو مع عدم التدبر، وقس على هذا، فإذا لم يعمل العبد بما يستطيع ودام على ذلك؛ حُرم بعدل الله من إرادة العمل نفسه.

ـ وكذا بالدعاء، فهو أهمُّ سببٍ بشرط أن يكون من قلبٍ يائسٍ من نفسه وواثقٍ في ربه وعازمٍ عزمًا أكيدًا على التغيير ويتخير أوقات إجابة الدعاء، ومن أولى ما يدعو به المرء أدعية القرآن وأدعية السُّنَّة الصحيحة، وقد قام بجمعها شيخنا الحبيب/ محمد بن إسماعيل في كتاب (مختصر النصيحة)، وشيخنا الحبيب/ أحمد حطيبة في كتاب «الدعوات الطيبات».

السائل: ***أحيانًا يُوفَّق العبد للطاعة ثم يُحْرَمَ منها، وكذا يترك المعاصي ثم يفعلها، فما السبب؟!***

الشيخ: سبب ذلك هو ثقة العبد في نفسه وعدم كمال توكله على الله، وعدم شعوره بالحاجة الملحة الدائمة إليه، فيخذل الله العبد ويحرمه الطاعة، ليوقن بألا حول ولا قوة إلا بالله، وألا خير في نفسه إلا بالله ومن الله، فخذلان العبد هاهنا رحمةٌ من الله به ليكمل إيمانه، إذ ليس في مقدور الكثير أن يستشعر هذه الحاجة الملحة إلى الله، بدون

هذا الخذلان، ومن عجيب رحمة الله أنَّ العبد ربما دام فترةً على ترك المعاصي وفعل الخير، حتى إذا وثق في نفسه، وركن إليها خذله الله، وعاد كما كان، فإذا تكرر هذا بالعبد، كمل يأسه من نفسه، وكمل اعتماده على ربه.

السائل: في عيوب لا أستطيع تركها، فكيف أتخلص منها؟

الشيخ: وزع اللهُ العيوب والمواهب، وجعل من العيوب ما يسهل على المرء أن يتخلص منه، ومنها ما لا يستطيع المرء التخلص منه ليدوم شعوره بالفقر إلى الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا أيقن بالفقر إلى الله، كان الخير والفلاح حليفاه، فمن فوائد ابتلاء العبد بالعيوب والمعاصي أن يدوم شعوره بالفقر والحاجة إلى الله، فيدوم تضرعه إليه بجلب الخير ودفع الشر، ويدوم وجله وخوفه من الانتكاس والخذلان بعد التوفيق، فمن حقق هذه الثلاثة - أعني الدعاء والخوف ودوام الافتقار - فقد كُمُلْ حاله.

السائل: **كيف يتخلص المرء من سوء الخلق؟**

الشيخ: الناس في سوء الخلق قسمان:

(أ) من يسوء خلقه مع الناس ابتداءً لحقدٍ أو حسدٍ أو بغي، فعلى هؤلاء أن يقرأوا ما ورد من ذمٍّ لهذه الآفات في الكتاب والسُّنَّة وكتب أعمال القلوب ليتولد في قلبه الرغبة في زوال هذه العيوب فيدعوا ويتضرع بزوالها، ومن الكتب النافعة في ذلك: كتاب «غذاء الألباب» للسفاريني، وكتاب «مختصر منهاج القاصدين».

(ب) من يسوء خلقه في مقابلة إساءة آخرين، فعليه أن يقرأ ما ورد في الكتاب والسُّنَّة وكتب الآداب من فضلٍ لحسن الخلق كالكتب السابق ذكرها قريبًا، وليعلم أنَّ حسن خلقه يكون بثلاثة أشياء:

١ ـ التضرع إلى الله بحسن الخلق، وفي دعاء النبي ﷺ الثابت عنه: «**واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عنِّي سيئها**

إلا أنت»، وقال أيضًا ﷺ : **«وأعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل»**.

٢ ـ اليأس من صلاح النفس إلا بالله، وتأمَّل قول النبي ﷺ : **«لا يهدي لأحسنها إلا أنت»، «ولا يصرف عنّي سيئها إلا أنت»**.

٣ ـ الإيمان بالقضاء والقدر، فما من مخلوقٍ يسيئ إلى العبد إلا بتقدير الله وبتسليط الله لهذا العبد المسيئ، وتأمل قول بعض السلف: «إني لأعرف ذنبي في خلق امرأتي وعبدي ودابتي»، يقصد ـ رحمه الله ـ أنه إذا أطاع الله وجد زوجته وعبده ودابته منقادين له في يسر وسهولة، فإن عصى وجد خلاف ذلك، وخرج بعض السلف من داره فآذاه رجلٌ، فدخل بيته وبكى وقال: «ما سُلِّط عليَّ إلا بسبب ذنوبي»، فمن استحضر ذلك حسن خلقه ولابد وصار نظره إلى من ابتلاه سبحانه وليس إلى من جرت على يديه الإساءة أو الابتلاء، وليعلم أنَّه لابد من

استحضاره لهذا وتفكره فيه على الدوام حتى يصير يقينًا في قلبه - والله المستعان -.

السائل: بعض الناس يُشغل بطلب الرزق لأوقاتٍ طويلة، وكذا الأمهات قد يُشغلن بحقوق البيت وقتًا طويلاً؛ فكيف يحافظون على صلاح قلوبهم؟

الشيخ: لا يتسنى لكثيرٍ من الناس أن يكون من طلاب العلم المميزين أو العباد البارزين، ولكن عليهم بالانشغال بقراءة القرآن وحفظه - إذا تيسر الحفظ - فمن أكثر من قراءة القرآن نهارًا، وجعل له وردًا للتدبر بالليل مع استقامته على الفرائض، وحسن الخلق فهو على خيرٍ كبيرٍ؛ إذ القرآن هو وقود العبد الذي لا يستقيم له علمٌ ولا عبادةٌ مع الإعراض عنه، وفي الاشتغال به وتدبره كفايةٌ لصلاح القلب واستقامته، فعلى هؤلاء أن يستغلوا الوقت قدر المستطاع في قراءة القرآن وحفظه، وعليهم باحتساب النية الصالحة - عند مباشرة مهام حياتهم، وعليهم بدوام دعاء الله والتضرع إليه بصلاح القلوب.

السائل: كيف ينمي العبد أعمال القلوب في قلبه؟

الشيخ: مع مزيد اهتمام العبد بالقرآن، وتزايد حلاوته في قلبه، تنمو أعمال القلوب شيئًا فشيئًا، ويعين العبد على ذلك أمور:

١ ـ منها: كثرة الاطلاع على الكتب التي عنيت بذكر أعمال القلوب وأقوال السلف: مثل مدارج السالكين، طريق الهجرتين، كتاب الزهد للإمام أحمد، كتاب الزهد للإمام ابن المبارك[(١)].

٢ ـ ومنها كذلك غض العبد لبصره عن المحرمات، وكذا عن شهوات الدنيا، وعرضها الزائل؛ فإن ذلك يورث قلبه السكينة والإخبات، فتنجع فيه الآيات والمواعظ، وكذا يقي العبد موت قلبه.

قال إبراهيم بن أدهم «كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب».

---

(١) ومنها كذلك (تهذيب النفوس)، و (البيان لأسباب زيادة الإيمان).

وقال محمد بن واسع: «الذنب على الذنب يميت القلب».

٣ - زيارة المرضى والعطف على المساكين واليتامى؛ فإن ذلك يزيل قسوة القلب التي تحول بين القلب وبين رسوخ حقائق الإيمان، وكذا تزيلها تفكر العبد في أحوال أهل البلاء من المسلمين، وفي الحديث: «**ارحم اليتيم وامسح على رأسه، يلن قلبك، وتدرك حاجتك**»[١].

٤ - إنكار العبد للمنكر وأمره بالمعروف؛ فإن ذلك يحافظ على حياة قلبه، قال حذيفة: «ميت الأحياء: من لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه».

٥ - كثرة تفكر العبد في سيئاته؛ فيسهل عليه الخوف والصبر على البلاء لرؤية نفسه مستحقةً للعقوبة.

٦ - كثرة تفكر العبد في الموت؛ فيسهل عليه اليقين والزهد والرضا.

---

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني في الصحيحة

٧ ـ كثرة تفكر العبد في خلق الله ونعمه سبحانه؛ فإنَّ ذلك يورثه المحبة والشكر، وكذا يورثه حلاوة الإيمان.

٨ ـ إدمان الحج والعمرة، وإدمان الدعاء فيها ـ مع الإلحاح والتضرع ـ بصلاح القلوب؛ فإنَّ أثرهما في زيادة أعمال القلوب، وزيادة الإيمان عجيب.

٩ ـ المداومة على الدعاء في ساعة الجمعة (آخر ساعة من يوم الجمعة قبل غروب الشمس)، وفي السحر بخاصةً، وكذا في أوقات الإجابة الأخرى؛ فإن للدعاء حلاوةً في القلب عظيمة، وأثرًا في زيادة أعمال القلوب عجيبًا[1].

١٠ ـ الاهتمام بطلب العلم، والتفرغ له ـ إن أمكن، مع عدم الإخلال بأوراد القرآن ـ؛ فإنَّ العلم يورث الإخلاص، ويذهب عن العبد العجب، ويبصِّره بمكائد الشيطان، ومداخله إلى القلوب.

(١) أفضل ما يدعو به الأدعية الواردة في الكتاب وصحيح السُّنَّة.

السائل: كيف يزيل العبد العجب من قلبه؟

الشيخ: لذلك أسبابٌ كثيرةٌ: منها التضرع إلى الله بذلك، وكذا بتكلف المرء التواضع حتى يصير له خلقًا[١]، وكذا بإكثار المرء من العبادة والاجتهاد فيها، فمع زيادتها يتعرف العبد على الرب أكثر، ويعرف تقصير نفسه، وكذا بمصاحبة المرء للصالحين الذين هم أشد اجتهاداً منه، وكذا بكثرة ذكر السيئات، وكذا ببعد المرء عن أسباب الشهرة، وكذا بذكر مغبة العجب من حبوط العمل والتعرض لمقت الله، بل وتعريض النفس لسوء الخاتمة، وكذا بالاطلاع على أقوال السلف في التحذير من العجب وكيفية التخلص منه.

سُئل سعيد بن جبير عن أعبد الناس؟ فقال: رجلٌ له ذنوب، وكلما ذكر ذنبه احتقر نفسه.

---

(١) هذا التكلف هامٌّ جداً ونفعه مجرب عند الكثير، وهو أن ينظر المرء في كل خلق يريد المرء التطبع به كالتواضع، والجود وغيرها من المكارم، فيتكلفه المرء في البداية ويداوم عليه حتى يصير له خلقًا بعدُ.

وقال المحاسبي: «إذا أصبحت النفس تؤدي بعض الطاعات بسهولة ويسرٍ، فليس معنى ذلك أنها فعلت ذلك بفضلها، بل إنَّ قوة عزمها التي وهبها الله إياها، والخوف من الآخرة قهرها، ولو وجدت من العبد فترة لرجعت إلى أحوالها، ولرفضت الطاعة».

ودخل رجلٌ على الإمام أحمد، وقال: إنَّ أمي رأت لك منامًا، هو كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا، وخرج إلى سفك الدماء.

وقيل للإمام أحمد: ما أكثر الداعين لك، فتغرغرت عيناه، وقال أخاف أن يكون هذا استدراجًا.

وقال ابن رجب: كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كله منه، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ

شديد العناية بذلك، وكتب مرةً إلى أهل الموسم كتابًا يُقرأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله، فإنه إن وكلني إلى نفسي كنتُ كغيري.

وقال بعض السلف: «كلما صغرت عبادتك في عينك عظمت عند الله، وكلما عظمت في عينك صغرت عند الله».

وقال الشافعي: «إذا خفت على عملك العجب، فاذكر رضى مَنْ تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقابٍ ترهب، فمن فكر في ذلك صغر عنده عمله».

وقال أبو سليمان الداراني: «من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الطاعة».

وقال الحسن البصري: «ليس لأمثالنا نوافل، إنما هي لمن كملت فرائضه»[٢].

---

(١) قراءة أقوال السلف ـ في الجملة ـ لها أثرٌ كبير في زيادة الإيمان، وله نفعٌ عظيم، وقد منَّ الله عليَّ بذكر جملةٍ كبيرةٍ من أقوالهم في كتاب «البيان لأسباب زيادة الإيمان».

السائل: نصائح يقدمها الشيخ لطالبي الاستقامة؟

الشيخ: قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: «إن لم يشتغل العبد بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه، بقي سيئي الجوهر، فإذا خاض في العلم ـ أي علمٍ كان ـ صادف العلم من قلبه منزلاً سيئًا، فلم يطب ثمرة، ولم يظهر في الخير أثره... فالعلم تحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا، والمتواضع تواضعًا» انتهى بتصرفٍ يسير.

وقال بعض السلف: تضيع منك حبة فتبكي، وتضيع منك الجنة وأنت تضحك. وقال آخر: «الدنيا بحر، وساحله المقبرة، وقد اقتربت مركب نفسك من الشاطئ».

وقال مخلد بن الحسين: «ما تكلمتُ بكلمةٍ أريد أن أعتذر منها منذ خمسين سنة». وقال حذيفة بن قتادة: «إنْ أطعت الله في السر أصلح قلبك، شئت أم أبيت».

وقيل لعون: «ما أنفع أيام الدنيا؟»، فقال: «انظر إلى ما تحب أن يجاورك في قبرك، فاعمل به».

وقال سعيد بن جبير: «كلُ يومٍ يعيشه المؤمن غنيمة».

وقال أبو سليمان الداراني: «من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومَنْ أحسن في ليله كوفئ في نهاره».

وقال بعض السلف: «من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضلَّ، ومن علم عمل، ومن عمل أبصر، ومن أبصر اعتبر، فعلم أنت الفضل كله لله».

وقال بعض الحكماء: «لمَّا صبر الورد على الألم، وتحمل مجاورة الشوك، ووخز الإبر، استحق أن يتصدر مجالس الأمراء، ويصبح رمز الحسن والبهاء، ولما آثر الحشيش السلامة، صار مرتع الحمير، وعلف البهائم، ورخص وداسته الأقدام، حتى غدا رمز المهانة»[1].

---

(١) هذا ـ على سبيل المجاز ـ لبيان عاقبة الصبر الحميدة، ومغبة الإعراض عن الهدى طلبًا للسلامة، وإلا فالورد لا يتألم بوخز النحل، وليس للورد ولا للحشيش اختيارٌ في هذا، بل الله هو الذي خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى.

وقال بعض السلف: «من لم يكن إيمانه في زيادة، فهو في نقصان»[١].

ونختم النصائح بقول النبي ﷺ الجامع: **«كما لا يُجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينزل الفجار منازل الأبرار، فاسلكوا أي طريق شئتم، فأي طريقٍ سلكتم وردتم على أهله»**[٢].

---

(١) على العبد أن يراعي هذه النصيحة الهامة، فعليه بالاجتهاد في زيادة عمله الصالح، فيكون عدد الركعات التي يقومها بالليل، وكذا عدد الآيات التي يقرؤها في ازدياد، وكذا النوافل التي يتطوع بها من صيامٍ وصلاةٍ وصدقةٍ وغيرها في ازدياد، وليكثر من التنفل بالصلاة والصيام قدر المستطاع، ويعينه على ذلك علمه بتقصيره الشديد في الخشوع في الصلاة، وبعدم وفائه بحقِّ الصيام كما ينبغي من حفظٍ للقلب والسمع والبصر واللسان وسائر أعضائه عن المعاصي.

(٢) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٥٧٥).

الخاتمة

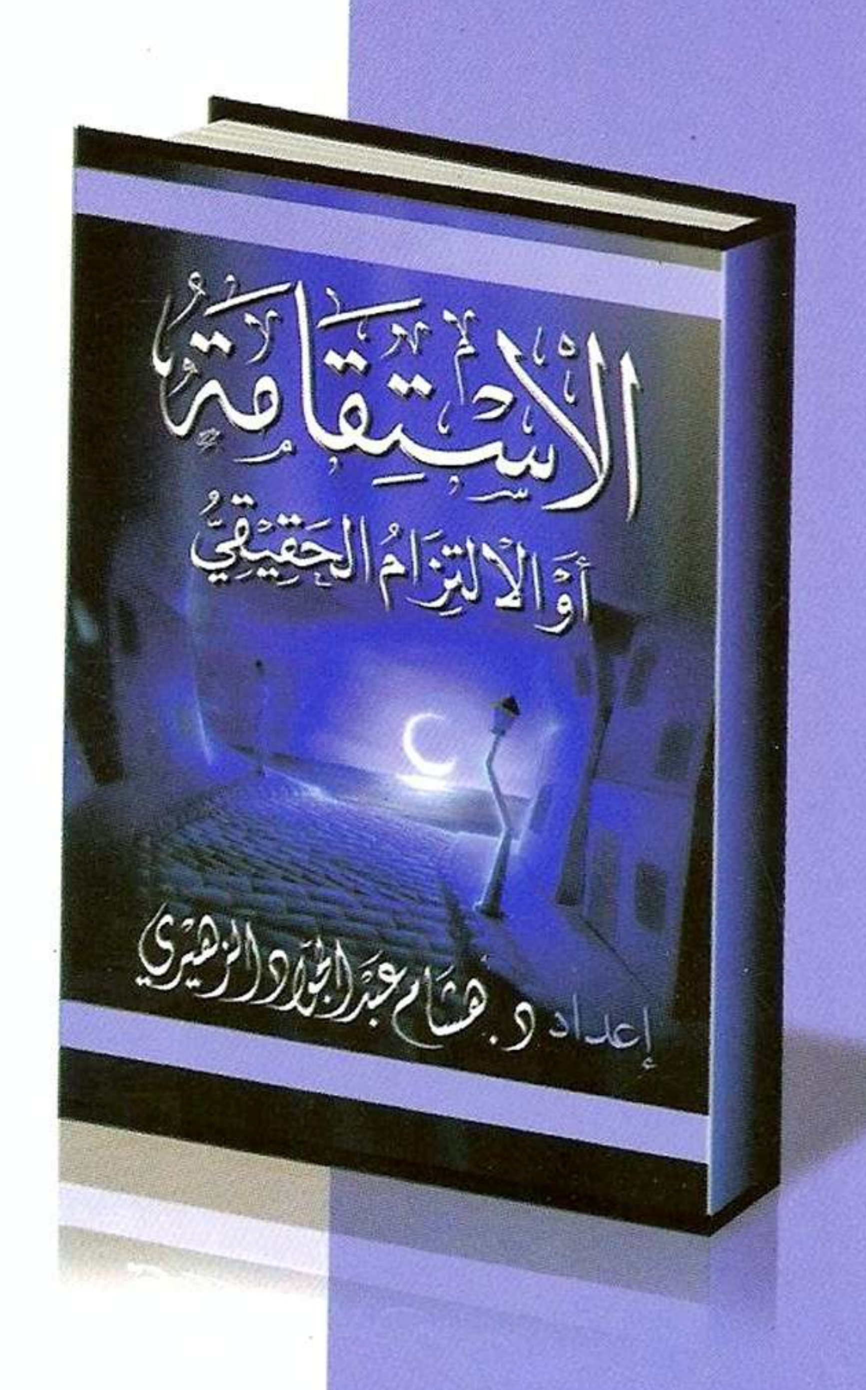
أسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعل من هذه الرسالة سببًا لهدايتي وهداية إخواني وأخواتي، وأسأله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يبارك لشيوخنا وعلمائنا، وأن يحفظهم وأن يجزيهم خير الجزاء، وأن يفتح عليهم بالخير العميم في الدنيا والآخرة.

وأدعو أهل العلم والصلاح إلى أن يكثروا من الدعاء لعصاة المسلمين بالهداية، وكذا لأهل العجز والكسل أن يرزقهم الله حسن الإرادة وحسن العمل، فهم المساكين حقًا، وأن يمنَّ على طالبي العلم بالعمل به والقيام بحقه حق القيام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع	صفحة



دار الأمل
للنشر و التوزيع
١٦شارع عبد الفتاح - غبريال - إسكندرية